معالم الخلود والاصالة والالتزام في التشريع الاسلامي

بقلم الاستاذ محمد بن ادريس العنبرى العيسوى

تقديم :

يتحدث التاريخ عن الرسالات الالهية وعن الحركات الاصلاحية وعن نشوء المذاهب والدعوات المختلفة · فنجده كثيرا ما تطيش سهامه وتخطىء تقديراته وتستبد به أخلاط تمنعه من تقييمها التقييم الصحيح الذى يستشرف الآفاق القريبة والبعيدة ليضعها فى الميزان الذى يشكل لها حجمها وقيمتها ومكانتها ويعرف بين مستوياتها واهدافها على اساس من النصفة والنزاهة والاعتدال ·

وقد تتابعت البحوث واسترسل الناس فى نشاطهم وفى تقصى الاحداث والاستنتاجات وكل رجع بحصيلته على مقدار ما يملك من قوة زاد المعرفة فى مجال البحث · وعلى مقدار ما يملك ايضا من تغيير ما بنفسه وتخليه عن حظوظه الخاصة · وليس بالهين ان يضعوا ايديهم على الحقيقة الا اذا استهدفوها وهم فى حال تجرد من دوافع لا يرضى عنها البحث العلمى النزيه · واذا كانت الاديان السماوية كلها تقدم اسمى ما يصل اليه الانسان من فهمه للحياة وانتفاعه بها ومن قدرته على تصفية مشاكلها وما تتطلبه بكل الحاح على اساس تقدير العواطف والمواقف الانسانية — فان فكرة الاسلام كانت أوسع مدى وابعد غاية وابقى على مخلفات الدهر · قد اغنت الوجود الانسانى والهبت حسه وصانت له كرامته بما وهبها الله تعالى من سعة الافق ورحابة الصدر والاضطلاع بالتوفيق بين مقتضيات الحياة· واذا كنا نفتقد الكثير من انصاف رسالة الاسلام · فقد خلد له التاريخ — رغم ما يطفو على سطحه فى بعض الاحيان — اكثر من مثل واكثر من معنى على أصالته والتزامه وتحديه لمن يريد ملاحقته · ولنقتصر على مثل واحد · وهو يتمثل فى هذا التجمع · البشرى الضخم الذى التف حول كلمة الاسلام والذى لا نجد له نظيرا فى التاريخ · وفى هذا المجتمع المفتوح لجميع الاجناس والالوان واللغات وفى هذه الامة الاسلامية التى اصبحت ذات معالم واضحة وذات قيم وذات قوى منضبطة تسير على خطط مرسومة كتب لها ان تتحول من مجموعات متفرقة مسحوقة فى جملتها الى جماعة ضاربة فى اعماق التاريخ لها اثرها البارز ومكانها المتميز فى استيصال

شائعة الفساد فى الارض والقضاء على قوى الشر ·

وقد عكف الدارسون والراصدون للحركة الاسلامية بالبحث والتحليل عن اسباب هذا التجمع الفريد الذى جمع كثيرا من الخصائص الانسانية والفضائل النفسية التى انعكست على الرعيل الاول من سلف هذه الامة الذين اتسعت امامهم الدنيا واسلمت لهم قيادها ولانت لهم الاحداث ونزلت عن قسوتها ·

وكلما امعنا النظر فى البحث عن علة ذلك وعن علة هذه المفارقات بين ماضى المسلمين وحاضرهم لا ينتصب أمامنا الا عامل واحد وهو : استكمال تلك الصورة الاسلامية الحقيقية فى نفوس المسلمين الاولين والتى هى مركز الثقل فى حياتهم ومركز الانطلاق فى جميع تصرفاتهم وتواريها أو انطماس معالمها عن الآخرين · فانه — كما يقول علماؤنا — العلة الواحدة لا يمكن ان تصدر عنها معلولات مختلفة · هكذا شاءت عناية الله أن يكون هذا الرعيل خير من يفهم عن الاسلام الكثير ويعمل من اجله الكثير وخير من يفهم عنه الناس الكثير كذلك · فكانوا بحق احداثا عظيمة تمثلت فى أشخاص ومثلا حية — الى الابد — تغدو وتروح بين الناس ·

ومن أجل ذلك حينما يتجاوزهم الحديث الى الاجيال اللاحقة لِشد ما تكون دهشتنا حينما تفاجئنا الاحداث بضروب من الصياغات والاتجاهات التى تنمحى معها الخصائص الاسلامية الزاخرة بالقيم النابعة بالمثل · فلا عجب اذا اصبح موقفها من دينها غامضا — وشهدت فى نفسها — كما شهد لها الناس — فسادا فى الراى وفسادا فى الاخلاق وفسادا فى العقيدة وفسادا — بصورة واضحة — فى الارتباطات العامة ·

وقد كان لهذا الانحراف العميق عن الخط الاسلامى الذى فقد حيويته ومناعته المعهودتين فى المفهوم الاسلامى منذرا بفشل المسلمين فى عصورهم الاخيرة · وبتدفق المحن عليهم وطغيان التأثيرات السلبية على حياتهم · وجديرا بخلق عقد مستعصية فى نفوسهم وتصورات وحساسيات مريضة لا سبيل للخلاص منها الا بالاستنجاد بالمشاهد الاسلامية التى تبصر الناس بمعاثر زللهم وتنير امامهم السبيل · ومتى تم ذلك وتخطت الاجيال خطوط الانحراف الذى تحدثنا عنه آنفا · بل سلكوا ازاءه مسلك التحدى والتصدى لكل المحاولات فانها ننتظر لها ميلاد تلك الصورة الحقيقية الاسلامية فى نفسها ولجميع الاجيال · وستنطبع لا محالة — حينئذ — بطابع النمو والتكيف الملائمين للفكرة الاسلامية التى تسعى لخير الانسان وما حول الانسان · ويحق لنا القول — حينئذ — بأن المجتمعات الاسلامية ليست صورة تاريخية يبحث عنها فى ذكريات الماضى · او فترة معينة بحدودها وملامحها وانما هى صورة ازلية خالدة لا ينكر عطاؤها ولا تتبدل سماتها فى كل زمن وفى ملتقى جميع الاجيال · والآن · وبعد ما وقفنا على هذا التصنيف الذى نود ان تنتهى ظروف ظهوره بين ماضى المسلمين وحاضرهم · وكيف استحالت نفسياتهم الجبارة الى نفسيات هزيلة لا تستطيع النهوض ولا التحرر من الضغوط المختلفة ووقفنا ايضا على العنصر الرئيسى الذى أعطانا معنى أوضح لتفكك الشخصية المسلمة وتحلل نفسيتها

وتقلص ظلها — ننتهي الى القول بأن الاسلام لا يلتزم تصحيح اخطاء الناس حينما يفتقدون الكثير من تصوراته وتفسيراته واشواقه فى غيبة عن شعورهم بالحاجة الى تلافى تلك الاخطاء والاحتراس من الوقوع فى مثلها ·

الا ان الامر الجدير بالاعتبار بعد هذا كله انه وان استنفدنا ما لدينا من جهد فى تصوير الحقيقة الاسلامية وسيطرة مفاهيمها لكل ما له علاقة بسيرة الحياة وسريرة البشر على سائر المفاهيم الاخرى وسعة كفاية تشريعاتها — فان كل ذلك يبقى دون الهدف المطلوب ما لم تنزل الى مستوى رصد الدعوة الاسلامية ازاء المذاهب والحركات العالمية الاخرى بجميع انظمتها السياسية والاجتماعية — ومقارنتها بها والتمييز بين معطياتها والوقوف على مواكب احداثها بكامل الدقة والتحليل وبكل تأكيد سيكون ذلك من اقوى العوامل على قياس الاشياء والحكم عليها حكما صادقا ووضعها فى موضعها الصحيح وسيسدى ذلك للتاريخ صفحة بيضاء نقية لك ان تستفيد منها ما تشاء · بالاضافة الى انه سيتيح للمسلم فرصة التعرف على مكانة رسالة دينه من بين الرسالات ومن بين الحركات والمذاهب الوضعية الاخرى · وعلى مكانه من دينه هو ايضا كما سيتيح ايضا للمسلم التعرف على قيمة الشائعات والتزييفات التى تثار حول الاسلام وعلى الاباطيل التى تصدى لها الاسلام نفسه فى وثائقه ونصوصه وحمل هذه الرسالة الواعون الذين اخلصوا دينهم لله من ذوى الاوعية النقية من اهله · لذلك لا يمكن بحال ان تبرز أمامنا صورة الاسلام على وجهها الحقيقى ولا سبيل لتصور فكرته فى مداها الواسع التى احتضنت الكون والحياة الا اذا نزلنا الى مستوى حركات عالمية مضت ووقفنا على مشاهدها ونشوئها وارتقائها بما لها من عبقريات ومذاهب وفلسفات · ووقفنا ايضا على سير اباطرة واكاسرة وعروش وما سجل لهم التاريخ من ادوار واحداث جسام ثم لنستمع لما تردد على الشفاه وما فعلت بهم الايام وكيف توارى ذلك كله عن الانظار ولم يبق منها الا اطلال دراسة قد طواها الدهر فى مشاهد ومصارع لا تخطئها العين قد ارتسمت على مهاد التاريخ ·

قام الاسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل الميلاد · يتكلم فينصت له الزمان ويخطب فيسجل له قلم التاريخ فهل احتفظت له الايام بالامتداد وبمرافقة التصنيفات الحضارية من بعده وبملامح البقاء · وهل كانت حظوظه الواسعة التى امتدت خاصرتها دهرا طويلا كتب لها أن تكون اداة حية وميراثا ضخما لمن بعده · لنسأل الشاعر العربى حيث يقول :

تسترت عن دهرى بظل جناحه
فعينى ترى دهرى وليس يرانى
ولو تسأل الايام ما اسمى ما درت
وأين مكانى ما عرفن مكانى

ومرت الدولة الكسروية الفارسية التى شاطرت العالم المتمدن وأملت عليه رسالتها وغرقت فى وحل المدنية المتعفنة الى اذقانها وتخطت المقاييس فى الانهماك فى الترف والنعيم وصنوف اللذاذات واوغل ملوكهم فى كل جهة واستباحوا لانفسهم ما لم تبح لهم الاعراف والتقاليد ·

« يتبع »